



"المرأة الفلسطينية في رحلة الفرنسي غوستاف فلوبير عام 1850م"
The Palestinian Woman in the Journey of the Frenchman Gustave
Flaubert in 1850 AD

المؤلف الأول ¹ * الباحث (مرحلة الدكتوراه): ممدوح غالب أحمد بري	مؤلف ثاني: الأستاذ المشارك عدنان محمد ملحم
. mb_a_1982@hotmail.com	. melhem@najah.edu
جامعة النجاح الوطنية - كلية الدراسات العليا - قسم التاريخ - فلسطين - نابلس	جامعة النجاح الوطنية - كلية الدراسات العليا - قسم التاريخ - فلسطين - نابلس

تاريخ الاستلام: 2025/4/25 م تاريخ القبول: 2025/11/07 تاريخ النشر: 2025/12/18

المُلَخَّص: يَغْلُبُ عَلَى مُشَاهَدَاتِ الرَّحَالَةِ الْفَرَنْسِي - غُوسْطَافِ فْلُوبِير - عَنِ الْمَرْأَةِ فِي
فِلِسْطِينَ الْمَزَاجِيَّةِ وَالتَّشَاوُمِ وَالْبُعْدِ عَنِ الْوَصْفِ الدَّقِيقِ لَوَاقِعِ الْمَرْأَةِ الْفِلِسْطِينِيَّةِ،

المؤلف المرسل : ممدوح غالب أحمد بري¹

وَنَزَعَتِهِ الْمُتَحَرِّرةَ مِنَ الدِّينِ، بِمَا فِيهَا مِنْ تَشَاوُمٍ وَمُيُولٍ يُجَسِّدُ مَفَاتِنَ الْمَرْأَةِ، وَتَوْصِيفُهَا وَفَقَ مَقْيَاسَ الْجَمَالِ وَالْقُبْحِ، وَابْتَعَدَ عَنْ وَصْفِ مَلَابِسِهَا مِنْ حَيْثُ أَنْوَاعِهَا وَمُكُونَاتِهَا وَأَشْكَالِهَا، وَدَوَّرَهَا الْاجْتِمَاعِي فِي الْمَدِينَةِ وَالرِّيفِ وَالْبَادِيَةِ، وَمَا كَانَتْ تَرْتَدِيهِ فِي الْجَلِيلِ الْغَرْبِيِّ وَالسَّاحِلِ وَالْجِبَالِ الْوُسْطَى وَوَادِي نَهْرِ الْأُرْدُنِّ وَالْأَغْوَارِ الشَّمَالِيَةِ وَالْجَلِيلِ الْأَوْسَطِ وَالشَّرْقِيِّ وَمُتَرَفِّعَاتِ جَبَلِ الشَّيْخِ خِلَالَ مُنْتَصَفِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ.

الكلمات المفتاحية: رحلة غُسطاف فلوبير، المرأة الفلسطينية، القرن التاسع عشر، مظهرها، حياتها العامة.

Abstract: The French traveler Gustave Flaubert's observations of women in Palestine are characterized by moodiness, pessimism, and a lack of accurate descriptions of the reality of Palestinian women. His pessimistic approach, free from religion, encompasses his tendency to idealize women's charms and describe them according to the scale of beauty and ugliness. He avoided describing their clothing in terms of its types, components, and forms, their social role in the city, the countryside, and the desert, and what they wore in the Western Galilee, the coast, the central mountains, the Jordan Valley, and the Jordan Valley. The northern, central and eastern Galilee, and the Mount Hermon highlands during the mid-nineteenth century.

Keywords:

Gustave Flaubert's travels, Palestinian women, nineteenth century, appearance, public life.



1. المُقَدِّمَة:

دَخَلَ الرحالة الفرنسي غوستاف فلووير (1821-1880م) فلسطين قادماً من بيروت وَصَوَّرَ وَصَيِّداً عام (1850م)، ماراً عَبرَ الطريق الساحلي من عكا إلى حيفا ويافا، وَتَجَوَّلَ في مُجَمَّل الجغرافيا الفلسطينية، وكان يَكْتُبُ مُشَاهَدَاتَهُ أَثناءَ مَسِيرِهِ، وَتَحَدَّثَ عن الكثير من القرى والتجمعات السكانية التي مر بها.

تَزَعُمُ هذه الدراسة أن وصفه للمرأة الفلسطينية ليس بذلك العُمق والتحليل، ولم يُقَدِّمَ الشيء الكثير، نتاج عدم اختلاطه بالمُجْتَمَعِ الفِلَسْطِينِي في المواضيع التي مَرَّ بها، بما في ذلك تَجاهَلُ أَهمِّية تَجاذُبِ أطراف الحديث مَعَ مُرافقيه المَحَلِّيِّين، مثل الأدلاء والبَغَالَةِ والسائس والقواس.

تَمَيَّزَتِ نظرته تجاه الدين والمجتمع، بالتَّشَاؤُمِية مع شيء من التحرُّر الليبرالي، نتاج مُبالَغَتِهِ أَثناءَ نَقْدِ المظاهر والمشاعر الدينية لدى زوار الأماكن المسيحية، وَوَصَفِهَا بالمشاعر المُزَيِّفة، وَلَمْ يُصَوِّرِ المرأةَ في عِدَّةِ مواضع إلا وفق مقياس مفاتها وتفاصيل جسدها، وابتعد عن وصف ذَوَقِها العام وَثقافتِها وأدوارها الاجتماعية.

تَكْمُنُ أَهمِّية هذه الرحلة كون صاحبها قَدْ زَارَ غالِبية مُدُنِ فلسطين باستثناء الطريق بين يافا ورفح، وَمَرَّ بِعَكا وحيفا، ويافا، وانتهى منها قاصداً القدس عبر طريق الرملة، وَوَصَلَ القُدُسَ بعد اجتياز مناطق جبلية وَعِرة وَثَرِيَّة بطبيعتها البيئية وفيها عدة قرى، وخرج من القُدُسِ مُتَّجِهاً إلى شمال فلسطين باتجاه نابلس، ومنها إلى جنين والناصرة

وطبرية، وغادرها قاصداً دمشق، ولذلك جرى تقسيم موضوعات هذه الدراسة وفق المناطق الجغرافية التي مرّ بها -فلووير-.

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة رسم صورة حول طبيعة مكانة ودور المرأة الفلسطينية في منتصف القرن التاسع عشر، وتنوّع دورها ومظهرها من منطقة إلى أخرى على طول الجغرافيا الفلسطينية، ومعرفة الخلفية الفكرية والثقافية والنفسية التي كانت تمثل لها مرجعية أثناء تدوين هذه الرحلة.

جرى جمع بيانات هذه الدراسة وتحليل مضامينها وتصنيفها وإعادة تبويبها، حيث بلغت (21) مشاهدة دورها حول المرأة خلال تجوله في فلسطين عام (1850م)، واختص بها مجمل الجغرافيا الفلسطينية، وتوزعت بين الصفحات (12-54) من مجمل صفحات رحلته المترجمة إلى العربية، والبالغة (141) صفحة، واختصت باقي صفحاتها بمشاهداته من جبل لبنان ودمشق وقرطاج، واعتمدت الدراسة على باقي المشاهدات العامة في فلسطين، تلك التي لم يتحدث فيها عن المرأة بهدف الاطلاع على خلفيته الفكرية، والولوج إلى مكانن شخصيته.

2. غوستاف فلووير (1821-1880م): الخلفية الفكرية وطريقته في التدوين.

يُصنّف - غوستاف فلووير - على أنه روائي ليبرالي فرنسي لديه نزعة مُتحررة من القيود الأخلاقية، اتضحت تلك النزعة في عدة مواضع خلال زيارته لفلسطين أو في مؤلفاته الأخرى (فلووير، الرحلة، 2013م، ص54، 55، 65، 66، 68، 73، 77؛ رسائل غوستاف، 1980، ص181)، دَرَسَ القانون، وهو صريح وشاذ في علاقاته الجنسية، وناقد للسلطات الحاكمة، ومع الحرية الفردية المطلقة، ولم يتزوج رغم وجود قصة عشق وعلاقة غرامية في حياته الاجتماعية، لديه نوع من مَرَض الصَّرَع، حاول الاستشفاء منه (فلووير،



مدمام بوفاري، 2010م، ص182 ؛ غوستاف في مصر، 1996م، ص203 ؛ إيمي. إل . ماكنتزي، 2004م، ص284)، وانعكست تلك النزعات والتوجهات الفكرية على شخصيته ومُشاهداته خلال تدوين رحلته عن فلسطين.

وَصَلَ فلسطين عام 1850م، مِنْ خِلال الطريق الساحلي قادمًا من شمالها (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص17)، وهي الفترة التي أعقبت انتهاء الحكم المصري في فلسطين (1832-1840م)، وما تخللها من تحديثٍ لِلكثير من القوانين والمؤسسات والنُظُم الإدارية العُثمانية، وانعكس ذلك على دور الدولة والقوى الأجنبية في فلسطين. لكن لم يعتمد -فلوبير- كثيراً في رحلته على النفوذ والتأثير السياسي لِبلادِه في فلسطين، ولا حتى على عائلات وشخصيات ومؤسسات دينية في فلسطين مُرتبطة بفرنسا (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص13، 17-18).

اختار معاونيه ومرافقيه بنفسه، منذ وصوله إلى يافا، وكانوا مِنْ العناصر المَحَلّية، ولم يَسْكُنْ خلال تنقله في الأديرة والكنائس الكاثوليكية أو تلك المباني التابعة لفرنسا في فلسطين، مثل القنصليات، بل اختار أن يَنْزِلَ في إحدى الخانات البسيطة في يافا (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص13، 17)، وهو عبارة عَنْ خان أرمني (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص17)، وكان يتناول وجبات طعامه في فندق خاص، بينما اختار الكثير من الرحالة الأجانب المَبِيت في الأديرة أو منازل أثرياء طائفتهم (أ. و. كينغلك، 2005م، ص68).

لم تُساعدَهُ تَوجّهاتُهُ الليبرالية، ومهنته كأديب وروائي، نتاج ما وقع فيه من مُغالطاتٍ، عندما وَصَفَ بِشَكلٍ سطحيٍ بلادَ لها بُعْدُها التاريخي والديني والسياسي العميق، لأنّه لم يعلم الكثير عن مُجتمعات الشرق ولم يتفاعل مع المحيط الاجتماعي خلال تجواله بما يكفي، ولم تساعدَهُ ليبراليته في الانفتاح على هذا المجتمع الشرقي المُتعدد والتّري، بحيث حافظ على حاجز وجداني بينه وبين العربي الفلسطيني، حتّى أنّه لم يندمج مع مُرافقيه، سيما سائس الخيل والدليل والبغالة والقّواس، لم يتبادل معهم القصص والتحليلات والملاحظات حول مشاهداته والمناطق التي مروا بها، واكتفى بما لديه، وكأنّه كان يُعاني من حالة نفسية، حتّى أنّه لم يكتَثِر للحوارات التي كانت تجري بين المارة والباعة والجُند الأتراك (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص 23، 52).

لم أجد في مُشاهدته ذلك العمق المعرفي (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص 17، 18)، ولديه نظرة تشاؤمية لربما نتاج توجّهاته الليبرالية ومنهجه الروائي الخالي من الحركّة والتّنوع (فريد جحا، 1984م، ص 156)، بحيث لم يستطع أن يفهم طبيعة الحياة في القدس على حقيقتها، ووَصَفِهِ لمُشاعر التدين لدى زوار الأماكن المسيحية بأنها مُزيفة، وتناول موضوع أيقونات الآباء والشهداء في زوايا الكنائس بشيء من عدم الاكتراث، وغير ذلك الكثير من التّنوعات التي تَعُج بها رواياته في هذه الرحلة (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص 22، 24، 25)، ولم يحاول أن يتخيل الحياة العامة في القدس خارج نطاق الفترة الوجيزة التي أُتيحَ لَهُ التجوال فيها، سيما في المساء بعد وقت الإفطار في شهر رمضان (فلوبير، 2013م، ص 12، 18).

أغمَضَ عينيه عن كثافة السكان الأصليين العرب الفلسطينيين، ولم يبحث بعمق في هذا السياق، بل قلّ أنّه كان يفتَرِض أن كل شخص يُشاهده أو يلتقي به هو يهودي، ولعلك أيها القارئ قد تعتقد لوهلة فلسطين فارغة من أهلها العرب الفلسطينيين،



وَنَسَجَ حَوْلَ ذَلِكَ الْكَثِيرَ مِنَ الْحِكَايَاتِ، مِثْلَ قِصَّةِ الْيَهُودِيِّ الَّذِي قَدَّمَ لَهُ مِيَاهَ الشَّرْبِ فِي الْقُدْسِ (فَلُوبِير، الرحلة، 2013م، ص 24، 61)، بِدُونِ أَنْ يُجْرِيَ مَعَهُ حِوَارًا، بَلْ وَصَفَهُ مَبَاشَرَةً بِالْيَهُودِيِّ، وَذَلِكَ الْفَلَّاحُ الَّذِي كَانَ بِرِفْقَةِ زَوْجَتِهِ فِي أَحَدِ الْبَسَاتِينَ شَرْقَ مَدِينَةِ الرَّمْلَةِ وَقَدَّمَ لَهُ الْبِسَاطَ كَيْ يَسْتَرِيحَ عَلَى الْأَرْضِ، وَوَصَفَهُ بِالْيَهُودِيِّ، وَذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يَعْتَمِرُ قُبْعَتَهُ وَيَرْتَدِي سُرْتَةً مِنَ الْفُرِّ، كَذَلِكَ وَصَفَهُ بِالْيَهُودِيِّ، وَفِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ فَنَدَقًا يَدِيرُهُ يَهُودِي (فَلُوبِير، الرحلة، 2013م، ص 50).

أُطْلِقَ عَلَى تِلْكَ الْغَابَةِ الَّتِي كَانَتْ تَزْدَهَرُ بِمُخْتَلَفِ أَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ الْعُشْبِيَّةِ وَالْمُزْهِرَةِ وَالشُّجَيْرَاتِ الْعُطْرِيَّةِ وَالْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ وَغَيْرِ الْمُثْمِرَةِ قَرِبَ مَدِينَةِ جَنِينَ، مُسَمًى بَرِيَّةِ إِسْرَائِيلِ (فَلُوبِير، الرحلة، 2013م، ص 48)، وَذَلِكَ الْيَهُودِيُّ فِي مَدِينَةِ طَبْرِيةَ، وَالَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مِنْ حِمَامٍ إِبْرَاهِيمَ بَاشَا، وَبَرَفَقَتِهِ امْرَأَتَانِ قَالَا عَنْهُ أَنَّهُ يَهُودِيًّا (فَلُوبِير، الرحلة، 2013م، ص 51)، وَتَجَاهَلَ وَجُودَ الْمُكُونِ الْأَبْرَزِ أَلَا وَهُوَ الْعُنْصُرُ الْعَرَبِيُّ الْفِلِسْطِينِيُّ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ الَّتِي كَانَتْ عَامِرَةً بِأَهْلِهَا الْعَرَبِ الْأَوَائِلِ، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَخْدِمِ كَلِمَةَ فِلَسْطِينَ، سِوَى عِنْدَمَا اسْتَخْدَمَهَا فِي وَصْفِ مَنَاطِقَ جُغْرَافِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ، لَرُبَّمَا تِلْكَ الَّتِي تَقَعُ فِي جَنُوبِ شَرْقِ مَرْجِ ابْنِ عَامِرٍ، وَتَجَاهَلَ وَجُودَ الْعِمَارَةِ الْكَنْعَانِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَعَرَضُهَا، وَبَالِغٍ فِي تَمْجِيدِهِ وَوَصْفِهِ مُخْلَفَاتِ عِمَارَةِ الْيُونَانِيِّ وَالْأَرْمَنِ فِي عِدَّةِ مَوَاقِعَ ضَمَّنَ الْجُغْرَافِيَا الْفِلَسْطِينِيَّةِ (فَلُوبِير، الرحلة، 2013م، ص 23، 24).

3. الْمَرَأَةُ الْفِلِسْطِينِيَّةُ فِي مَدُنٍ وَبِلَدَاتِ السَّهْلِ السَّاحِلِيِّ

تَبَرُّز في عدة مواضع تلك السطحية الَّتِي وَقَعَ فِيهَا خِلَال وَصْفِهَا المرأة الفلسطينية، حينما قال أن نساء مدينة عكا يغرزن على جوانب أغطية رؤوسهن مشابك صغيرة، تحمِل قِطْعاً نَقْدِيَّة مِنْ فِئَةِ الْقِرْش وَفَنَةِ التَّلَارِي (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص14).

يَتَكَرَّر ذات الوصف السطحي حتى والخلي من الإبداع الجمالي خلال مُروره في الطريق من عكا إلى حيفا، وجبال الكرمل وقرية الدرة وأم خالد، وقرية علي أبورامي عبر الطريق الساحلي الفلسطيني، وَلَمْ يَذْكُر الكثير عن مَشَاهِد النساء، سوى في قرية أم خالد، حيثُ شَاهَدَ قَبْل الدخول إلى القرية امرأة كانت ترتدي لباساً أزرق، وتحمل جَرَّة على رأسها، كانت عائدة من نبع الماء الذي يقع أسفل قرية أم خالد وإلى الشمال منها (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص17)، بحيث لَمْ يَصِف في هذا المَشْهَد لِبَاس المرأة الَّتِي تَعِيش في القَرِيَّة، ولم نتعرف من خلال هذا الوصف على لباس ومظهر المرأة في جغرافية الساحل.

نَزَلَ في مدينة يافا داخل حُجْرَة كانت مُخَصَّصَة لِلنِّسَاء داخل خان أرمني، كانت هذه الحجرة صغيرة وَمَرَبَّعَة، ونوافذها مِنْ خَشَب (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص18)، كان بمقدوره أن يتحدث مطولاً عن زوار هذا الخان، كونه مكان عام وقريب من الميناء، ويرتاده العامة والخاصة من مختلف الأجناس المحلية والأجنبية والنساء والرجال، إلا أنه اختار أن يتحدث عن بعض الجوانب الَّتِي تتناسب مع شخصيته الليبرالية الغير مُتفاعلة مع المُحِيط والمجتمع (فريد جحا، 1984م، ص150-151).

شَاهَدَ بعض المُسَافِرِينَ في الطريق بين يافا والرملة من بينهم نساء، وكانت إحداهن زنجية وبدينة، وَيَمَشِينَ سَافِرَات (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص18-19)، واستخدم كلمة سافرات في عدد من رواياته ومشاهداته، وكأنه يوحي لك أن المُجْتَمَع الفلسطيني في منتصف القرن التاسع عشر هو مجتمع علماني وغير مُرتَبَط بعادات وتقاليد أو مظاهر دينية، لكن على ما يبدو أنه كَانَ يُدَوِّن الكثير من المظاهر اللافتة للأنظار أو الَّتِي يمكن أن



تُسَمِّها بِأَتَمَّا شاذَّة أو مُخْتَلِفَةً عن المظهر العام في حينه، لكنه لَمْ يُصَرِّحْ أنها شاذة أو نادرة، لكننا عند مقارنتها مع مشاهدات غيره من الرحالة وفي ذات المدينة، وَعِنْدَ الاطلاع على سيرة حياته الشَّخصية يُمكن لَنَا أن نَجْزِمَ أن - فلووير - كان انتقائي خلال تدوين مشاهداته (روجرز، 2012م، ص 12، 16، 18)، ويتكرر ذات السياق من خلال استخدام كلمة امرأة بدينة أو يستبدلها بممتلئة أو مُكْتَزَّة الجَسَد في مُشاهداتٍ أخرى.

انتقل من الرملة إلى قَرْيَةِ رِحاب وقرية العنب، وَمَرَّ بِنِسَاءٍ يَرْقُصْنَ على شكل دائري على أطراف قرية العنب، الَّتِي تَمَيَّزَتْ ببيوتها الكبيرة المبنية من الحجارة، واستدرك فيما بعد بأن هذا ليس سوى مشهد تَشْيِيعٍ لِمَيِّت (فلووير، الرحلة، 2013م، ص 19-20)، هَلْ يُعْقَلُ أَنَّهُ لم يلفت انتباه - فلووير - سوى لَطَمٍ وَتَحْيِيبِ النساء حول المَيِّت؟، ولم يلفت نظره لوحات فنية أخرى تُحِيطُ بِالمَشْهَد، بل لم يُحَسِّنْ أن يستخدم ألفاظ تُعَبِّرُ عن هَذَا المَشْهَد وفق الثقافة المَحَلِّية، وَكَانَ بِمَقْدُورِهِ أن يَسْأَلَ مُسَاعِدِيهِ وَرِفَاقِهِ وَأَعْضَاءَ القَافِلَةِ وَالنَّاسِ المَحَلِّيِّينَ عن هَذَا المَشْهَد، كَانَ بِمَقْدُورِهِ أن يَصِفَ المَرْأَةَ الفِلَسْطِينِيَّةَ في الريف الشرقي لِبلَدَةِ الرَّمْلَةِ، وهي منطقة فيها الكثير من القُرى والنساء العَامِلَاتِ في البساتين والحُقُولِ إلى جانب أزواجهن (روجرز، 2012م، ص 16-17).

تَوَسَّعَ سِوَاهُ من الرحالة في وصف المرأة الفلسطينية وحياتها الاجتماعية في الأرياف والمُدُنِ وحتى في منازلها مثل الرحالة الإنجليزية - ماري روجرز - في رحلتها إلى فلسطين عام (1859م) والرحال الإنجليزي- دي لا مارتين - في رحلته إلى فلسطين عام (1832م)

(روجرز، 2012م، ص18، 21، 12، 14، 24، 27، 29، 32)؛ (دي لا مارتين، 2013م، ص290، 313، 318).

4. المرأة الفلسطينية في الأرياف الغربية للقدس:

بَعْدَ تَمَكُّنِهِ مِنْ قَطْعِ مَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ مِنَ الطَّرِيقِ بَيْنَ السَّاحِلِ بِاتِّجَاهِ سَفُوحِ الْجِبَالِ، نَحْوِ الْقُدْسِ، عَبَرَ الْبَسَاتِينَ وَالْأَرْضَ الْمَزْرُوعَةَ بِالْأَشْجَارِ وَالْمَحَاصِيلِ، وَالْمِيَاهِ الْجَارِيَةِ، وَالْبَيْئَةِ الطَّبِيعِيَّةِ الْجَمِيلَةِ، شَاهَدَ أُسْرَةَ يَهُودِيَّةٍ، وَفَرَّتْ لَهُ حَصِيرَةٌ (بَسَاطٌ عَلَى الْأَرْضِ)، وَكَانَتْ تَرْتَدِي النِّسَاءَ قُبْعَاتٍ وَاقِيَةٍ مِنَ الشَّمْسِ، وَكَانَتْ زَوْجَةُ رَبِّ الْأُسْرَةِ تَظْهَرُ حَلَمَاتٍ تَدْيِيهَا مِنْ انْفِرَاجِهِ فِي ثَوْبِهَا، وَهِيَ تُرَضِّعُ صَغِيرَهَا (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص20).

لم يعترف بالهوية العربية الإسلامية لسكان هذه البلاد، وتكرر حديثه عن اليهود والمسيحيات في عدة مواضع (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص38، 52) والمسيحيات وفتاة أجنبية، وعند الحديث عن مشاهد النساء التي توحى أنهن عربيات ترك المجال مفتوح للقارئ كي يحدد هوية تلك النساء، وابتعد قدر الإمكان عن وصف النساء بالعربيات، رغم أن يهود فلسطين قبل الهجرات الصهيونية هم في مجملهم عرب، واختار عندما وَصَفَهُنَّ بِالْيَهُودِيَّاتِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ وَصْفَ دِينِي، اسْتَطَاعَ فِي كِتَابَاتِهِ أَنْ يُلْغِيَ الْآخَرَ الْعَرَبِيَّ الْمُسْلِمَ وَاسْعَ الْإِنْتِشَارَ وَعَمِيقَ الْجَذُورَ وَالثَّقَافَةَ، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ الْلِيبَرَالِيَّةَ الَّتِي بَرَزَتْ فِي شَخْصِيَّتِهِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعٍ هِيَ لِيَبَرَالِيَّةٌ زَائِفَةٌ، وَلَرَبَّمَا كُنْتُ لِيَبَرَالِيَّةً تَحْتَ وَقَعِ حَالَةٍ نَفْسِيَّةٍ، دَفَعْتُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ النِّقْمَةِ تَجَاهِ الْمَظَاهِرِ الدِّينِيَّةِ دَاخِلَ الْكَنِيسَةِ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ (فريد حجا، 1984م، ص150-152).



شاهدَ قبل الدخول إلى القدس سبع وعشرين امرأة يرتدين ملاءات زرقاء خلال عودتهن من السوق (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص 20)، لا يُعقل رَغْمَ تواجُد هذا العدد الكبير من النساء إلا أن - فلوبير - لم يستطع أن يُقدِّم من للقارئ رواية ومادة تاريخية شيقة، تصف جانب من الحياة الاجتماعية (فريد جحا، 1984م، ص 156).

كان بمقدوره أن يُخمين ويبحث في أسباب اجتماع هذا العدد الكبير من النساء، ويُعرِّضهُ إلى نشاط اقتصادي كانت تقوم به نساء الريف الغربي للقدس، من خلال بيع منتجاتهن الزراعية من خضروات وبقوليات وفاكهة وأجبان وحليب ولحوم وبيض وطيور في أسواق وأزقة مدينة القدس، وكان بمقدوره أن يبحث عن أسماء هذه القرى، وأن يصف تمايزهن على صعيد الألبسة وغطاء الرأس والأحذية وما يحيط بخصورهن من زنابير، وهل يُعقل أنهن جميعهن كن يرتدين ملاءات زرقاء؟، طبعاً لا.

بمقدوره أن يصف ما يحملنه من منتجات القدس وحاجات منازلهن في طريق العودة، وكان عليه أن يستفسر عن ذلك من مرافقيه في الرحلة أو أن يبادر ويستفسر من إحداهن لعله يجد ضالته، ولربما أنهن لسن قرويات يبعن الخضروات والفاكهة ويعملن في البساتين والحقول، بل بدويات يبعن مُنتجات منازلهن من الألبان والأجبان وحليب الماشية والجميد، وهذا ما فعلته الرحالة الإنجليزية - ماري لوجرز - لأنها دخلت عدة منازل فلسطينية، بل أنها دخلت إلى حجرات النساء وتنقلت بين عدة منازل تُمثِّل عدة أنماط اجتماعية، وتحدّثت مع النساء والرجال في الأزقة والأرياف خلال رحلتها (روجرز، 2012م، ص 12، 16، 18، 19).

5. المرأة الفلسطينية في القدس وبَيْت لحم:

ترتدي النساء في كنيسة القبر المقدس اللباس الأبيض (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص24)، اكتفى بذكر اللباس الأبيض، وهو اختصار لمظهر أعمق من ذلك، مرتبط بوجود عدة ألوان يتميز بها لباس الراهبات، ومنها المُقَلَّم بالأَسود، رغم أن اللون الأبيض هو اللون السائد، وغير ذلك الكثير، حول هِئَاتِهِن، ولربما أصولِهِن العِرقية، وأحذيتِهِن، ولم يذكر هل هذا هو لباس المسيحيات العربيات أم أنه حكراً على الراهبات في منتصف القرن التاسع عشر. بل أنه لم يصف لباس الزائرات المسيحيات والمُسْلِمَات للقبر المُقَدَّس، لعلهُ شاهد الكثير مهن إلى جانب أُسْرِهُنَّ في أروقة كنائس القدس التي زارها جميعها، وتجاهل الحديث حول ذلك، ولم يتحدث عن لباس النساء إلا في مَشْهَد واحد داخل كنيسة القبر المُقَدَّس (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص23-26).

تجتمع عند قرية - أرطاس - قبل بيت لحم نساء عند البئر، يجلبن المياه وسط الإبل، وبعض النساء ينشدن وينحن خلال دفن المَيِّت، وبعض العرب على جمالهم، وعلى احد الجمال امرأة تحمل أمامها طفل صغير، وكان خمارها مُزِين بِقِطْعٍ مِنَ الفِضَّة (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص35)، نحن أمام رواية شبيهة بسواها من تلك الروايات المَكْرُرة التي ذَكَرْهَا سابقاً، سيما في جانب التَّحْيِيب حول جثمان الشَّخْص المَيِّت، وما يحمله هذا المَشْهَد مِنْ حُزْنٍ وَشَوْمٍ، وحديثه عن الخمار والمُزِين بِقِطْعٍ معدنية سيتكرر ذِكْرُهُ في عدة مَوَاضِعٍ لَاحِقاً، بدون المزيد من التحليل والوصف داخل عُمقِ المُجْتَمَع، ولم يُبَيِّن أن هذه المرأة عربية كما وصف سواها باليهوديات والمسيحية، ولم يَبْحَث حول سبب ركوبها احد الجمال، وطريق سَفَرِهَا والمنطقة التي تنتسب لها، سيما أننا نتحدث عن منطقة - أرطاس - وما يحيط بها من عشائر عربية وبدو، وأهالي الأرياف المُحِيطَة بِهَا مِنَ الْعَرَبِ إِلَى



جانب مُكون عَرَبِي مسيحي، وتجاهل أي شيء يُمكن أن يُعبر عن هوية وثقافة أهل فلسطين.

دخلَ مدينة بيت لحم، ومَرَّ بنساء بين الفينة والأخرى، لباسهن مُقلَم بِمُرَبَّع صَغِير مُلَوَّن على الصدر، كانت تعتمر هذه الفتيات أوشحة مُزينة بِقِطْعٍ فضية، وتُغطي النساء رؤوسهن بِقُبَّعات طويلة الجانبين، تُغطي الأذنين، وتُغطي الجبهة صفوف من القِطْع النقدية الواحدة فوق الأخرى، وتتراكم من الخلف صفوف أكبر، تتدلى منها صفائح معدنية مربوطة بخيوط، وأعلى القبعة على شكل كعكة، ويُحيط الأغنياء هذا الغطاء بسوار من الفضة (فلووير، الرحلة، 2013م، ص28)، كانت هذه هي الرواية الوحيدة التي تحدث فيها بشيء من التفصيل عند وصف غطاء الرأس، وكان بمثابة غطاء الرأس عند النساء الفلسطينيات في مدينة بيت لحم، بينما لم يتوسع في وصف لباس النساء في ريف وبادية المُدُن المختلفة، حتى أن نساء بعض الأحياء داخل بيت لحم أيضاً يحمل العديد من مظاهر التمايز، إلا أنه لم يُحسن وصف ثوب المرأة الفلسطينية واكتفى بوصفه بأنه مُقلَم ومُلَوَّن من عند الصدر، بينما كانت تدخل الألوان المُقلَّمة في مجمل مكونات الثوب التراثي الفلسطيني في مدينة بيت لحم، لكنه لفت انتباهه حيز منطقة الصدر وغطاء الرأس الجميل والمُدْهِش والشبيه بالهَرَم فوق رأس المرأة المدنية في بيت لحم.

يقول أنه كان قُرب ضريح العذراء اثنان من الرهبان الكبوشيين يدخلان ويشربون الكحول، برفقة فتاتين بارعتين من حيث الجمال، يبدو صدر احدهن الأبيض عاري

(فلوبير، الرحلة، 2013م، ص35)، كما أكدنا فيما سبق، أنه اعتاد أن يُدَوِّن المَشَاهِدَات الشاذة أو اللافتة للأنظار، وتلك التي تحمل إحياء جنسي وسلوك خاطئ قد يَقَع فيه بعض رجال الدين، لَمْ يُدَوِّن سوى تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ تُعَزِّزُ تَوَجُّهَاتِهِ الْمُتَحَرِّرة ومزاعمه حول التَّدِين الزائف وأن مشاعر اتباع الكنيسة من العامة والرهبان غير صادقة ومصطنعة (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص22، 24، 25 ؛ فريد جحا، 1984م، ص153، 158، 161).

6. المرأة الفلسطينية في الأغوار وتجمعات نهر الأردن:

خلال تجواله في منطقة الأغوار الفلسطينية، وهي بيئة غنية بالمشاهدات، بما فيها من مخيال وحياة طبيعية، وما يميز سكانها البدو والحضر، لم يلفت انتباهه على صعيد النساء سوى عيون نساء البدو العرب في منطقة نهر الأردن، ووصفها بالعيون الواسعة، وتشبه لون البُن المحروق، والشفاء مصبوغة بالأزرق (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص36-37)، وهي دلالة إضافية حول أن كتاباته لم تحمل في طياتها زخم الكاتب والأديب والروائي المُتقن، بقدر ما أثار فضوله جوانب الجمال والقُبْح والإثارة والمفاتيح الحسية تجاه الجنس الآخر (فريد جحا، 1984م، ص151، 156، 158)، وهو ميول مُنْسَجِم مع منظومته الفكرية والعاطفية، وتُعَزِّز ذلك سيرة حياته وتجاربه ومؤلفاته الروائية قبل وبعد رحلته إلى فلسطين (فريد جحا، 1984م، ص158-161 ؛ فلوبير، مدام بوفاري، 2010م، ص182).

دَخَلَ الحِصْنَ في تل السلطان (مدينة أريحا)، وكان بمثابة منزل الحاكم، وشاهد فيه امرأة تَعِجْنَ وتَخْبِزُ بدون حَمِيرَة، وَوَصَفَهُ بِخَبِزِ السَّقَر (الترحال) عِنْدَ اليهود (فلوبير،



الرحلة، 2013م، ص 38)، وكانت في ذات الحصن امرأة مُكْتَزَزة بعض الاكتناز، تَرْتَدِي ثَوْباً أزرق، تَتَدَلَّى ظَفَائِرُهَا وَتُحِيطُ بِوَجْهَيْهَا (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص 39)، يبدو أن - فلوبير- أخفق في وصف هذا النوع من الخُبْز الفلسطيني المَحَلِّي والذي يُسَمَّى بالكراديش (جراديش)، ويتكون من القمح أو الدُّرَّة المطحون بشكل غير جيد عبر الطاحونة الحجرية (الحَجَر اليدوي)، ولا أعلم هل استخدم المؤلف كلمة الخميرة أم أنها من مِخْيَال المُتَرَجِّم، لأنها لربما لَمْ تُعَرَفْ لَدَى المُجْتَمَعَات الغربية والشرقية في القرن التاسع عشر، ولم يُحَسِّن كلاهما أو أحدهما التعبير عنها بشكل يُنَاسِبُ السياق التراثي، وعاد ووصف مظاهر جسد المرأة، ووصفها بالمكتنزة وذات الصفائر، بمعنى أنها كانت سافرة، ولا أعلم هنا كيف شاهدها سافرة، ونحن نتحدث عن مجتمع ريفي ضمن جغرافية الأغوار الفلسطينية قرب الحدود مع الأردن، وفيه الكثير من العادات والتقاليد المُحَافِظَة ومظاهر التَدَيُّن، سيما ونحن نتحدث عَن تَجَمُّع سُكَانِي مَدَنِي بَسِيط، وهو تَجَمُّع عربي فلسطيني يُسَمَّى - تل السلطان-، والتي هي اليوم مدينة أريحا القديمة، إلا إن كَانَ - فلوبير- مُتَقَنَّاً لفنون اختلاس النظر من وراء الجُدران وشقوق الأبواب المُغلقة، وهو اعتقاد باتت تُعزِّزُهُ مُجَمَّل الروايات السابقة واللاحقة.

7. مُجَدِّدًا فِي الْقُدْس:

عاد إلى القدس، وشاهدَ في الزقاق امرأة مسيحية دميمة، ذات عينين جميلتين، وأنف مُستقيم، وأسنانها خَرِبَة، وعندما وصلَ التُّزُل، رحبت بِهِ امرأة تلبس أَسْمَالاً (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص 44-45)، تبدو واضحة عليه حالة التشاؤم والنقد المُتَكَرِّر، ولا

يَصِفُ الأشياءَ إِلَّا كِي يَنْقُذَهَا بِشَكْلِ جَافٍ خَالِي مِنَ الْحَرَكَةِ، حَيْثُ كَانَ يَبْتَعدُ عَنِ تجسيد جمال اللوحة رغم حالة الفقر أو الملابس البالية، ويرافق هذا النقد موقف سلبي تجاه الدين، ولا أعلم كيف جَزَمَ أنها مسيحية!، إلا أنه لم يستخدم عبارات تؤكد أسباب جزمه بأنها مسيحية، وَوصفها بِالدَّميمةِ إِلَّا أَنْ عَيْنِهَا جَمِيلَتَانِ، وَأُخْرَى كَانَتْ تَلْبِيسَ أَسْمَالاً، وَكَانَ يَقْصِدُ بِهَا بِأَنَّهُمَا مَلَابِسُ بَالِيَةٍ، لَكِنَّهُ اكْتَفَى بِالْوُقُوفِ عِنْدَ كَلِمَةِ الْأَسْمَالِ، وَلَمْ يَبْحَثْ فِي خَلْفِيَّاتِهَا الاجتماعيةِ الأُخْرَى.

8. المرأة الفلسطينية في أرياف جبَلِ نابلس:

غَادَرَ الْقُدْسَ، وَفِي الطَّرِيقِ إِلَى نَابِلَسَ مَرَّ بِعَرِيفِهَا الْجَنُوبِيِّ الشَّرْقِيِّ بِثَلَاثِ نَسَوَةٍ قُرْبَ قَرْيَةٍ حَوَارَةٍ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَصِفْ مُشَاهَدَتَهُ هَذِهِ، وَعِنْدَ مَدْخَلِ مَدِينَةِ نَابِلَسَ مَرَّ بِامْرَأَتَيْنِ تَحْمِلَانِ أَثْقَالاً، كَانَتْ إِحْدَاهُنَّ بَعِينِيَّيْنِ سَوْدَاوِيَّيْنِ كَبِيرَتَيْنِ، وَتَرْتَدِي إِحْدَاهُنَّ طَرَبُوشَ أَحْمَرٍ يُغْطِي الْجَبِينَ، وَوَضَعَتْ فِي وَسْطِ الطَّرَبُوشِ قِرْشَ فِضِّي، وَأَنْ وَجُوهَهُنَّ كَانَتْ تَنْمُ عَنْ حَيَوِيَّةِ (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص46)، اكْتَفَى هُنَا بِشَيْءٍ مِنْ وَصْفِ غَطَاءِ الرَّأْسِ، لَكِنَّهُ وَصَفَ غَيْرَ مُقْنَعٍ وَلَا يَنْسَجِمُ مَعَ طَبِيعَةِ غَطَاءِ الرَّأْسِ فِي رِيْفِ مَشَارِيقِ نَابِلَسَ، بِحَيْثُ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ شَيْءً عَنِ قِطْعَةِ قِمَاشٍ رَقِيقَةٍ كَانَتْ تَضَعُهَا النِّسَاءُ الْفِلَسْطِينِيَّاتُ فَوْقَ الطَّرَبُوشِ، لَرُبَّمَا انْشَغَلَ عَنْ ذَلِكَ بِمَشْهَدِ الْإِمْعَانِ بَعِيوْنَهُنَّ وَحَيَوِيَّةِ الْوَجْهِ الَّتِي وَصَفَ بِهَا الْامْرَأَتَيْنِ كَمَا جَرَتْ عِنْدَهُ الْعَادَةُ فِي مَشَاهِدِ أُخْرَى حَمَلَتْ دَلَالَاتٍ مُرْتَبِطَةً بِالْمَفَاتِنِ وَالْجَمَالِ وَالْقُبْحِ.



رأى بعض النسوة هنا وهناك أثناء نصب مخيمه في البساتين وتحت الأشجار، ويبدو أنه قد خرجن لأغراض الترويح عن النفس (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص46)، تؤكد سياقات الرحلة أنه يتحدث عن مدخل مدينة نابلس، ويُلمح إلى حالة الرخاء التي لا بُد أنها كانت تتمتع بها مدينة نابلس، نتاج وصفه أسباب تواجد النسوة خارج المدينة لأغراض التزه، ولم يَكلّف نفسه وصف المرأة النابلسية في أزقة وأحياء ومنازل نابلس.

تَرَكَ مدينة نابلس وغادرها باتجاه جنين، ولم يُخبرنا شيء يُذكر عن هذا الريف الواسع قبل الدخول إلى جنين، وداخل أحياء جنين شاهد عند ماء الطاحونة امرأة كانت ترتدي حِزامٍ وخمار مُلَوّن لا يُعطي منها سوى الفم، وَيَزْعُم أن لديها ذراعين أبيضين ويدين جميلتين، تُذكره بلوحات الفنان الفرنسي بيير مينيار، وَأَنف دَقِيق مُسْتَقِيم وَعَيْنَيْن سوداوين تَنْظُرَان إلى الماء (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص48)، لَمْ يَتَغَيَّر شيء جديد خلال وصف مُشاهداته، ولم يصف المرأة الفلسطينية كي يُبين واقع اجتماعي وتنوع ثقافي، وثرء مادي، بل لم يَتَرَكَ في كتاباته إلا ما يحمل دلائل وإيحاءات غرائزية جنسية، وكأنه كان يَحْتَلِس النَظَرَ إلى مَوْضِع كانت تتواجد فيه النساء قُرب طاحونة القمح، حَتَّى أَنَّهُ لَمْ يُكلف نفسه في أن يَدْكُر اسم هذه الطاحونة وهذا النهر الصغير أو عين المياه التي كان من المُفْتَرَض أن تُدير طاحونة المياه في مُحيط مَدِينَة جنين.

9. المرأة الفلسطينية في الجليل الأوسط والشرقي:

غادرَ مدينة جنين وتجاوزَ السَّهْل نحو الناصرة، واستقبلهم في دير البشارة راهب ذو لحية كبيرة، والقبطان الإنجليزي وزوجته وحفيده، وكانت حفيدته فتاة شقراء بعينين

زرقاوين وشفائر مُزَيَّنة (فلوبر، الرحلة، 2013م، ص 49)، كان بمقدوره أن يقف على أطراف سهل مرج بن عامر، ويصف الكثير من أدوار المرأة الفلسطينية العاملة في هذا السهل مع زوجها في فِلاحة الحقول والبساتين المزدهرة، حيث ازدهرت عشرات القرى الفلسطينية في هذا السهل وعلى أطرافه قبل أن يتم تهجيرها على مراحل في عامي (1928م) و(1948م)، كَانَ بِمَقْدُورِهِ أَنْ يَمْنَحَ الْقَارِئَ فِكْرَةَ عَنْ طَرَازِ الْزِي الشَّعْبِيِّ لَدَى نِسَاءِ السَّهْلِ الْفِلَسْطِينِيِّ الْعَظِيمِ، قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى النَّاصِرَةِ وَيَصِفَ الْفَتَاةَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ وَيَتَجَاهَلَ وَصَفَ الْإِدَّتِهَا، مِمَّا يُوَكِّدُ مَزَاجَنَا السَّابِقَةَ حَوْلَ مَنَهِجِ - فلوبر - فِي التَّدْوِينِ.

تَوَقَّفَ أَثْنَاءَ تَجَاوُلِهِ فِي مَدِينَةِ النَّاصِرَةِ عِنْدَ النَّبْعِ، وَشَاهَدَ نِسَاءً يَتَحَدَّثْنَ بِصَوْتِ مُرْتَفِعٍ، وَجَمِيلَاتٍ وَأَنْيَقَاتٍ، وَيَرْتَدِينَ فَسَاتِينَ ذَاتَ شَقُوقٍ عَلَى الْجَانِبِينَ يَتَطَايَرُ شَقَاها مَعَ الرِّيحِ، يَحْمِلُ بَعْضُهُنَّ الْجِرَةَ عَلَى الرَّأْسِ، وَالكَثِيرُ مِنْهُنَّ شَقَرَاوَاتٍ (فلوبر، الرحلة، 2013م، ص 49-50)، وَكَأَنَّ الْأَسْوَاقَ وَالْخَانَاتِ وَالْكَنَائِسَ كَانَتْ تَخْلُو مِنْ النِّسَاءِ، وَكَانَ يَعُودُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ لِيُبْحِثَ عَنْ مِفَاتِنِ الْمَرْأَةِ قُرْبَ عَيْنِ الْمِيَاهِ (النَّبْعِ)، وَأَزْعَمَ أَنَّهُ كَانَ يَتَسَلَّلُ خِلْسَةً، وَيَسْتَرِقُ النَّظَرَ، نَتَاجَ أَنَّ عَيْنَ الْمِيَاهِ تُمَثِّلُ مَكَانَ فِي الْخَلَاءِ، تَرْتَاذُ النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ، وَيَجْلِبْنَ حَاجَةَ مَنَازِلِهِنَّ مِنْ مِيَاهِ الشُّرْبِ وَالتَّنْظِيفِ، وَلِقَضَاءِ حَوَائِجٍ، مِنْ قَبِيلِ غَسْلِ بَعْضِ أَطْرَافِ الْجَسَدِ مِثْلَ الْوَجْهِ وَالذَّرَاعَيْنِ وَضَفَائِرِ شَعُورِهِنَّ، وَتَعْرِيزِ شَعْرِهِنَّ لِأَشْعَةِ الشَّمْسِ، وَرَبْمَا الْاسْتِحْمَامِ أَيْضاً.

خَرَجَ مِنَ الدَّيْرِ يَهْدَفُ مُقَابِلَةَ مُمَثِّلِ فَرَنْسَا، وَمَرَبِّهِ بَعْضَ النِّسَاءِ عِنْدَ مَتَعَطِفِ الطَّرِيقِ، وَكَانَتْ إِحْدَاهُنَّ طَوِيلَةَ الْقَامَةِ، وَاحِدَاهُنَّ مَمْتَلِئَةُ الْجِسْمِ وَشَعْرُهَا أَشْقَرُ وَأَنْفُهَا أَفْطَسُ بَعْضُ الشَّيْءِ، وَكَانَتْ تَمْتَطِي النِّسَاءَ أَحْزَمَةً مِثْلَ الرِّجَالِ تُبْرِزُ خُصُورَهُنَّ (فلوبر، 2013م، ص 49-50)، لَمْ تَخْتَلَفْ رَوَايَاتُهُ عَنْ سَابِقَاتِهَا، مِنْ حَيْثُ اسْتِخْدَامُ ذَاتِ الْكَلِمَاتِ وَالْأَوْصَافِ الْمُرتَبِطَةِ بِقُبْحِ أَوْ جَمَالِ الْمَرْأَةِ، وَتَرْكِيزُهُ عَلَى مَوْضُوعِ السُّفُورِ، رَغْمَ أَنَّ



الفلسطينيات المسيحيات في تلك الأزمان كُنَّ مثل المُسلمات غير سافرات. باتَ مِنَ المعلوم أَنَّهُ استخدم هذا الأسلوب نتاج طبيعة الثقافة الليبرالية المتحررة التي يؤمن بها، ونتاج توجهاته الجنسية الشاذة والغير سوية (رسائل فلوبير، 1980م، ص121 ؛ فلوبير، مدام بوفاري، 2010م، ص182)

توجد حمامات إبراهيم باشا في قرية - بيت أولا - قُرب مدينة طبرية، خَرَجَ من تلك الحمامات رجل يهودي وامرأتان ديمتان، وعندما دخلَ -فلوبير- طبرية شاهد نساء يهوديات قادمات من الشمال شعرهن أشقر وتسريحتهن ذات خِصَلاتٍ معقوفة (فلوبير، الرحلة، 2013م، ص52)، لم يذكر في رواية أخرى موضوع النساء في مجمل ريف طبرية وصفد وشمال بيسان، سوى هذه الرواية التي ذكر فيها عدة يهوديات، مما يقود القارئ إلى الاعتقاد أن مجمل سكان فلسطين في منتصف القرن التاسع عشر كانوا من اليهود، وهذا زعم غير صحيح، وليس فقط مُبالغ فيه، لأننا نحن نتحدث عن أقلية من اليهود العرب، ولربما بعض يهود رومانيا مِمَّن سكنوا في جزء بسيط من الجليل الفلسطيني، وهُنا خانة التعبير عندما وصف مشهد خروج اليهودي من الحمامات وبرفته امرأتان ديمتان، وهو تشبيه في غير مَحَلِّهِ، لأن تركيبة الحمامات التركية تقوم على الفصل بَيْنَ أقسام النساء والرجال، لربما انتظر هذا الشخص قريباته قرب مَدخل الحمام بعد استحمام الرجال والنساء في أقسام منفردة، وانتظرهن كي يعودوا معاً إلى المنزل، لكنه تَعَمَّدَ أَن يُدَوِّن هذه المُشاهدة بصيغة فيها إحياء جنسي أو تخمين يؤدي إلى أن هذا الحمام موضع مُمارَسة الرذيلة.

يؤكد ذلك أن لديه ميل جنسية شاذة، وفهم لم ينضج حول طبيعة المجتمع الفلسطيني (فلوبير، مدام بوفاري، 2010م، ص82؛ فلوبير في مصر، 1996م، ص203)، لكنه أيضاً تجاهل في هذه الرواية أن يُسلط الضوء على الجانب الصحي والحضاري الذي لعبته مثل تلك الحمامات العامة أو أن يُبين للقارئ الأسباب التي دفعته كي يصفهن باليهوديات.

10. الخاتمة:

- لم يُتقن - غوستاف فلوبير - وصف واقع المرأة الفلسطينية في منتصف القرن التاسع عشر، من حيث مظهرها ولباسها ومكانتها وأدوارها الاجتماعية.
- لم يُحسن أن يميز بين لباس المرأة في المدينة والأرياف والبادية، أو في الجليل والسهل الساحلي والجبال الوسطى والأغوار، أو بين لباس الراهبات والمسيحيات واليهوديات والمسلمات، ولم يدخل البيوت والمنازل بما يكفي كي يبين لنا دور المرأة الفلسطينية في الأسرة.
- ابتعد عن وصف المرأة الفلسطينية أو العربية، ووصفها باليهودية والمسيحية في غالبية المواضع، وابتعد عن وصفها بالمسلمة أو على الأقل من أهل البلاد المحليين.
- كان وصفه للمرأة الفلسطينية مُختصر جداً، على عكس غيره من الرحالة ممن أتقنوا وصف أبسط الأشياء التي كانت تخص المرأة الفلسطينية في نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر.



- اهتم بجوانب فيها إحياءات جنسية ومفاتن، على حساب وصف ثقافة ودور المرأة الفلسطينية، وبالعالم في وصف تقاطيع جسد المرأة، من حيث العيون والشعر والبشرة والأذرع وندبيها وسُمنتها.
- رغم أنه لم يتاح له أن يحتك عن قُرب بعالم النساء الفلسطينيات، إلا أنه على ما يبدو كان يُتقن اختلاس النظر خلف الأبواب والشبابيك والجدران والتسلُّ قُرب عيون المياه.
- يُلَمَس من كتاباته النَّفَس التشاؤمي والتدوين الرغباوي، ويلاحظ عدم استمتاعه بهذه الرحلة، وابتعاده عن وصف جماليات البيئة والطبيعة والمُجتمع، مما أفقَد كتابه عدة جوانب جمالية.
- ابتعد عن الموضوعية في مُجَمِّل مُشاهداته التي دونها، حينما تَكَرَّر وصفه لنساء فلسطين بالسافرات والسَمينات والقببحات، وصدورهن عارية، أو عيونهن زرقاء وشعورهن شقراء للأجنبيات منهن، وبعضهن يهوديات ومسيحيات وأوروبيات.
- عَجَزَ على أن يُبين إلى أي الفئات الاجتماعية تننَّسب النساء ممَّن يلبسن الخمار أو تلك النساء السافرات في الأزقة والساحات العامة والمنازل ولا حتى طبيعة ومكونات الخمار، وذات الأمر بالنسبة لِمَن يلبسَن الأسمال.

- استطاع أن يُركز على مدى اهتمام المرأة الفلسطينية بتعليق القِطْع المَعْدَنِيَّة أو النَقْدِيَّة حَوْل غطاء رأسها من الأمام أو الخلف، بل تناوله بشكل مُبالغ فيه، ويخلوا من الحَرَكَة والجمالِيَّات الفَنِيَّة.
- جاء وصفه للمرأة الفلسطينية عبر عرض مشاهد وملاحظات غير مُكتمِلة، وكان بمقدوره أن يُدَوِّن عِدَّة سطور حول أشكال وألوان وجودة ومُكوِّنات مَلابِس المرأة الفلسطينية، وحتى طريقة لباسها من منطقة إلى أخرى، وأن يَعْرِض مُقَارَنَات حول ما ترتديه هذه المرأة في منزلها خلال الصباح والنهار والليل وأثناء استقبال ضيوفها.

11. المراجع:

1. ألفونس دي لا مارتين (2013م)، "مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق عام 1832م"، ترجمة جمال شحيد وماري طوق، الكويت.
2. أ. و. كينغليك (2005م)، "رحلة إلى المشرق 1834-1835م"، ط1، ترجمة محمود العابدي، سلسلة شرق الغربيين، دار السويدي للنشر والتوزيع.
3. غوستاف فلوبير (2013م)، "رحلة إلى الشرق فلسطين ولبنان وقرطاج عام 1850م"، ترجمة فريد الزاهي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتاب الوطنية.
4. فريد جحا (1984م)، "غوستاف فلوبير 1821-1880م"، مجلة الآداب الأجنبية، عدد 40، الناشر اتحاد الكتاب العرب، الصفحات 146-165.
5. ماري إليزا روجرز (2012م)، "الحياة في بيوت فلسطين: رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها عام 1855-1859م"، ترجمة جمال أبو غيدا.

مراجع أجنبية:



6. إيمي. إل . ماكزوي (2004)، "رسائل جورج ساند وغستاف فلووير"،
<https://archive.org/details/in.ernet.dli.2015.169388>
7. صحيفة أصدقاء فلووير (1979م)، "وسام جوقة الشرف"، العدد 55، ص30،
[/https://www.amis-flaubert-maupassant.fr/article-bulletins/055_030](https://www.amis-flaubert-maupassant.fr/article-bulletins/055_030)
8. غسطاف فلووير (1980م)، "رسائل فلووير"، مج1، جامعة ترينيت،
<https://archive.org/details/lettersofgustave0001flau/page/n23/mode/2up>
9. غسطاف فلووير (1997)، "فلووير في مصر"،
<https://archive.org/details/flaubertinegypt00flau>
10. غسطاف فلووير (2010م)، "رواية بعنوان مدام بوفاري"، دليل جامعي،
https://books.google.co.il/books?id=PJE5-qdSFT4C&pg=PR2&redir_esc=y